

سورة الجاثية

مكية [إلا آية ١٤ فمدينة]

وآياتها ٣٧ وقيل ٣٦ آية [نزلت بعد الدخان]

١١٧٥/٢/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَصْرَفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ .

﴿حَمَّ ١﴾ إن جعلتها اسماً مبتدأ مخبراً عنه بـ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ لم يكن بدمن حذف مضاف، تقديره: تنزيل حم تنزيل الكتاب. و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان (تنزيل الكتاب) مبتدأ، والظرف خبراً ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون على ظاهره، وأن يكون المعنى؛ إن في خلق السموات لقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ فإن قلت: علام عطف ﴿وَمَا يَبُتُّ﴾ أعلى الخلق المضاف؟ أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت: بل على المضاف، لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه، استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. قرئ «آيات لقوم يوقنون» بالنصب والرفع، على قولك: إن زيدا في الدار وعمراً في السوق. أو عمرو في السوق. وأما قوله: ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١) فمن العطف على عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما: إن، وفي، أقيمت الواو مقامهما، فعملت^(٢) الجر في ﴿وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾، والنصب في ﴿لَآيَاتٍ﴾. وإذا رفعت فالعاملان: الابتداء وفي عملت الرفع في ﴿لَآيَاتٍ﴾، والجر في ﴿وَأَخْتَلَفُ﴾ وقرأ ابن مسعود «وفي اختلاف الليل والنهار» فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش

(١) قوله: «وأما قوله: آيات لقوم» أي مع قوله (واختلاف). (ع)

(٢) قوله: «فعملت» أي: الواو. (ع)

سديد لا مقال فيه. وقد أباه سيوبه، فما وجه تخريج الآية عنده؟ قلت: فيه وجهان عنده. أحدهما: أن يكون على إضمار في. والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها. ويعضده قراءة ابن مسعود. والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله أو على التكرير، ورفعها بإضمار هي: وقرئ: «واختلاف الليل والنهار» بالرفع. وقرئ: «آية» وكذلك وما يبيث من دابة آية. وقرئ «وتصريف الريح» والمعنى: إن المتصفيين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح، علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فآمنوا بالله وأقروا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان: ازدادوا إيماناً، وأيقنوا وانفضى عنهم اللبس؛ فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت باختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها. ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً: عقلوا واستحكّم علمهم وخلص يقينهم، وسمي المطر رزقاً؛ لأنه سبب الرزق ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة، أي: تلك الآيات آيات الله. و﴿تَتْلُوهَا﴾ في محل الحال، أي: متلوة ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة. ونحوه: ﴿وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا﴾^(١) [هود: ٧٢] وقرئ «يتلوها» بالياء ﴿بَعْدَ اللَّهِ وَآبَائِهِ﴾ أي بعد آيات الله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، يريدون: أعجبني كرم زيد. ويجوز أن يراد: بعد حديث الله، وهو كتابه وقرآنه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقرئ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء والياء.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٧﴾ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ ذُرَائِهِمَّ جَهَنَّمَ وَلَا

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس نحوه لأن في «وهذا بغلي» حرف تنبيه فقيل العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه أي تنبّه وأما «تلك» فليس فيها حرف تنبيه «فإذا كان حرف التنبيه» عاملاً بما فيه من معنى التنبيه لأن الحرف قد يعمل في الحال فالمعنى تنبه لزيد في حال شيخه أو في حال قيامه وقيل العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى أي انظر إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ولا حرف التنبيه إن كان هناك قلت: بل الآية نحو ﴿وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا﴾ من حيثية نسبة العمل لاسم الإشارة غاية ما ثم أن في الآية الأخرى ما يصلح أن يكون عاملاً وهذا لا يقدر في التنظير إذا قصدت جهة مشتركة وأما إضمار الفعل فهو مشترك في الموضوعين عند مَنْ يَرَى ذلك. قال ابن عطية: وفي «تتلوها» حذف مضاف أي تتلو شأنها وشرح العبرة فيها ويحتمل أن يريد آيات الله القرآن المنزّل في هذا المعنى فلا يكون فيها حذف مضاف. وقرأ بعضهم «يتلوها» بياء الغيبة عائداً على الباري تعالى و«بالحق» حال من الفاعل أي مُلتبسين بالحق أو من المفعول أي مُتنبّه بالحق، ويجوز أن تكون للسببية وتعلق بنفس «تتلوها». انتهى. الدر المصون.

يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الأفاك: الكذاب، والأثيم: المتبالغ في اقتراح الآثام ﴿يُبِيرُ﴾ يقبل على كفره ويقسم عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة^(١) وهو أن ينحى عليها صارا أذنيه ﴿سُكَّيْرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريًا لها معجبًا بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن. والآية عامة في كل ما كان مضارًا لدين الله. فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ يُبِيرُ سُكَّيْرًا﴾؟ قلت: كمعناه في قول القائل [من الطويل]:

يَرَى عَمَرَاتِ السَّمَوَاتِ تَمَّ يَزُورُهَا^(٢)

وذلك أن غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيتها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعانيتها؛ شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها: كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها ﴿كَأَنَّ﴾ مخففة، والأصل كأنه لم يسمعها / ٢ / ١٧٥ ب: والضمير ضمير الشأن، كما في قوله [من الطويل]:

كَأَنَّ ظَنِيَّةً^(٣) تَعْطُو إِلَيَّ وَارِقَ السَّلْمِ^(٤)

(١) قوله: «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح. وفيه أيضًا: ضر الفرس أذنيه: ضمها إلى رأسه، فإذا لم يوقعوا قالوا: أصر الفرس، بالالف. (ع)
(٢) تقدم.

(٣) فيومًا نوافينا بوجه مقسم
كان ظبية تعطو إلى وارق السلم
فإن لم نلها لم تمننا ولم تنم

لباعث بن صريم الشكري يذكر حال امرأته. ويومًا: ظرف مقدم. ويروي: ويوم، أي: ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم. وقسم قسامًا وقسامة، كجمل جمالًا. وظرف ظرافة. والمقسم: المحسن. وكأن: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير المرأة، أو ضمير الشأن. وظبية: بالرفع على الأول خير. وعلى الثاني: مبتدأ، وهو مع خبره خير كأن. وتعطو: صفة على الأول، وهو الخبر على الثاني. ويروي: ظبية، بالنصب؛ فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلًا. ويروي: مجرورًا بالكاف، وأن: زائدة بين الجار والمجرور: وتعطو: تأخذ وتتناول، مائلة إلى وارق السلم. ومن النوادر: أورق فهو وارق. وأبغ فهو يابغ. والقياس: مورق، أي: كثير الورق. ويروي: ناضر، بدل: وارق. والسلم: شجر العضاة، هذا شأنها في يوم. وفي يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضمًا إلى مالها، فإن نعطها لم تتركنا نام من كثرة كلامها وإبذائها، ولم تنم هي أيضًا. واليوم هنا: مطلق الزمن.

ومحل الجملة نصب على الحال. أي: يصر مثل غير السامع ﴿وَإِذَا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿أَتَّخَذَهَا﴾ أي اتخذ الآيات ﴿هَزُؤًا﴾ ولم يقل: اتخذه، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ: خاض في الاستهزاء بجميع الآيات. ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، ويحتمل: وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبه به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطعن والغميمة: افترسه واتخذ آيات الله هزواً، وذلك نحو افتراض ابن الزبير قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ، وقوله: خصتمك. ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء؛ لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية [من البسيط]:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا^(١)
حيث أراد عتبة. وقرئ: «علم أولئك» إشارة إلى كل أفك أئيم، لشموله الأفاكين. والوراء اسم للجهة التي يواربها الشخص من خلف أو قدام. قال [من الطويل]:
أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاحَتْ مَنِيَّتِي؟ أَدِبُ مَعَ الْوَلْدَانِ أَرْحَفُ كَالنَّسْرِ^(٢)

= البيت في خزنة الأدب. ٤١١/١٠، أوضح المسالك ٣٧٧/١، وجواهر الأدب ص ١٩٧، والجنى الداني ص ٢٢٢، ٥٢٢، ووصف المباني ص ١١٧، ٢١١، وسر صناعة الإعراب ٦٨٣/٢، وسمط اللآلي ص ٨٢٩، وشرح الأشموني ١٤٧/١، ٣٣١، وشرح قطر الندى ص ١٥٧، والكتاب ١٦٥/٣، والمحتسب ٣٠٨/١، ومغني اللبيب ٣٣/١، والمقرب ١١١/١، ٢٠٤، والمنصف ١٢٨/٣، وهمع الهوامع ١٤٣/١، والدر المصون ٣٩٠/٢.

(١) نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
إني لأياس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

لأبي العتاهية. وكنى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها عتبة، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثاً. وقوله: «من الدنيا» معناه: أنه لا يريد من الدنيا غيره. والقائم: أي بأمر الشرع. ويكفيها، أي: يكفيني تلك الحاجة. أو يكفي نفسي ما تريد، والله: بقطع الهمزة؛ لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة، إني لأياس أي أقطع طمعي منها، ثم أطمع فيها ثانياً بسبب احتقارك للدنيا وما فيها. وهو مدح بنهاية الكرم. وروي أنه كتب ذلك في ثوب، وأدرجه في برنية وأهداها للمهدي، فهم يذفعها إليه فقالت: أتدفعني إلى رجل متكسب بالتعشق، فأمر بملء البرنية مالاً وذفعها إليه، فقال للخزان: إنما أمر لي بدنانير، فقال له: نعطيك دراهم ونراجعه. واختلفوا في ذلك سنة، فقالت: لو كان عاشقاً لما فرق بينهما.

ينظر: ديوانه (٣٤٧)، والبحر المحيط (٤٤/٨)، والدر المصون (١٢٦/٦).

(٢) لعبيد، والهمزة للتقرير. وورائي هنا بمعنى: أمامي، وهو في الأصل: الجهة التي يواربها الشخص، لكن يكثر في الجهة التي خلفه، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب. وانه: المستقبل. وتراخت: تباعدت وتأخرت. وأدب: أمشى بهينة وتؤدة. وأن المصدرية مقدرة قبله؛ لأنه اسم =

ومنه قوله عز وجل: ﴿يَنْذِرُكُمْ وَيُنذِرُكُمْ﴾ أي من قدامهم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّحْمَةِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لأن آيات ربهم هي القرآن، أي هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، تريد كامل في الرجولية. وأيما رجل. والرجز: أشد العذاب. وقرئ بجر «اليم» ورفع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَتَّجِرَ مِنْ فِيهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلِيَتَّجِرَ مِنْ فِيهِ﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر. فإن قلت: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وما موقعها من الإعراب، قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني: أنه مكوّنها وموجدتها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقها. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي جميعاً منه، وأن يكون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ تأكيداً لقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ ثم ابتدء قوله: ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وأن يكون ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنْهُ﴾ خبره. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «منة» وقرأ سلمة بن محارب: منه، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي. أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك. أو هو منه.

﴿فَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِغَفْوَاتِهِمْ لِقَاءٌ إِلَى رَبِّهِمْ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَحْزِيَ قَوْمًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

حذف المقول لأن الجواب دال عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها. وقيل: نزولها في عمر رضي الله عنه - وقد شتمه رجل من غفار

= ليس، وإن كان لفظه مرفوعاً. وأزحف: يحتمل أنه بدل، وأنه حال. وكالنسر: حال. أو معناه: كزحف النسر في الأرض، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس؛ لأنه يتوهم من قوله: «مع الولدان» نقص عقله، فدل على أن المراد الضعف كالولدان. والشيب كالنسر؛ لأنه أبيض، مع كونه رئيس الطيور وكلها نخشاء.

فهم أن يبطش به. وعن سعيد بن المسيب: كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ قارىء هذه الآية، فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليل الأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا لما أَرَادَهُ اللهُ من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت: قوله: ﴿قَوْمًا﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقومًا^(١) مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر: ليجزي عمر بما صنع: ليجزي بصبره واحتماله. وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي. وقرئ «ليجزي قومًا» أي: الله عز وجل. وليجزي قوم. وليجزي قومًا، على معنى: وليجزي الجزاء قومًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَتَنَّبِتِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِينًا يَتَنَّبِتُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة والفقه. أو فصل الخصومات بين الناس؛ لأن الملك كان فيهم ١١٧٦/٢ والنبوة ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم ﴿يَتَنَّبِتِ﴾ آيات ومعجزات ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أو لعداوة وحسد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة ومنهاج ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال، ودينهم المبني على هوى وبدعة، وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين أبائك. ولا توالهم، إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم، وأما المتقون، فوليهم الله وهم موالوه. وما أبين الفصل بين الولايتين.

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(١) قوله: «أيما قوم وقومًا مخصوصين» لعله: أو قومًا. (ع)

﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَّيْرُ لِيْنًا﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن. وقرئ «هذه بصائر» أي: هذه الآيات.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخِئَتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحساب. والاجتراح: الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أي نصيرهم. وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأولهما الضمير، والثاني: الكاف، والجملة التي هي ﴿سَوَاءً مَخِئَتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأنَّ الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد. ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم، كان سديداً، كما تقول: ظننت زيذاً أبوه منطلق^(١). ومن قرأ «سواء» بالنصب: أجرى سواء مجرى مستويًا، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية، وكان مفردًا غير جملة. ومن قرأ: «ومماتهم» بالنصب، جعل محياهم ومماتهم: ظرفين، كمقدم الحاج وخفوق النجم. أي سواء: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتًا؛ لافتراق أحوالهم أحياء. حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي. ومماتًا، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدَّ لهم. وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، لأنَّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم: كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه. وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردّد إلى الصباح: ساء ما

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا أعني إبدال الجملة من المفرد أجازة ابن جني وابن مالك ومنه ابن الجليج ثم ذكر عنه كلامًا كثيرًا في تقرير ذلك ثم قال: والذي يظهر أنه لا يجوز. يعني ما جَوَزَهُ الرَّمْحَشَرِيُّ قال: لأنهما بمعنى التَّصْيِيرِ ولا يجوز صَيَّرْتُ زيذاً أبوه قائمٌ لأنَّ التصيير انتقالٌ من ذاتٍ إلى ذاتٍ أو من وَصَفٍ في الذات إلى وَصَفٍ فيها وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صَيَّرْتُ المقدَّرة مفعولاً ثانياً لأنَّ النحاة نَصُّوا على جَوَازِ وقوع الجملة صفةً وحالاً نحو: مررتُ برجلٍ أبوه قائمٌ، وجاء زيدٌ أبوه قائمٌ فالذي حكموا عليه بالوصفية والحالية يجوز أن يقع في خِيَرِ التصيير إذ لا فَرْقٌ بين صفةٍ وصفةٍ من هذه الحيثية. انتهى الدر المصون.

يحكمون. وعن الفضيل: أنه بلغها فجعل يردّها ويبكي ويقول: يا فضيل، لبت شعري من أي الفريقين أنت.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢)

﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوف على بالحق، لأن فيه معنى التعليل. أو على معتل محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣)

أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه. وقرئ: «ألهة هواه»، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وتركه عن الهداية^(١) واللطف وخذله على علم، عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه، وأنه ممن لا لطف له. أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألفاظ المحصلة والمقربة^(٢) ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللَّهُ﴾ وقرئ «غشاوة» بالحركات الثلاث. وغشوة، بالكسر والفتح. وقرئ: «تذكرون».

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤)

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا. أو يموت بعض ويحيا بعض. أو نكون موأنا نطفًا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. أو يصيبنا الأمران/٢/١٧٦ب: الموت والحياة، يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة. وقرئ: «نحيا» بضم النون. وقرئ: «إلا دهر يمر» ما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظن وتخمين: كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى

(١) قوله: «وتركه عن الهداية» تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة: أنه لا يريد الشر ولا يفعله. وعند أهل السنة: لا يقع في ملكه إلا ما يريد، والله خالق كل شيء، فالإضلال: خلقه الضلال في القلب. (ع)

(٢) قوله: «المحصلة والمقربة» يعني: للهداية. (ع)

أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» (١٤١٢) أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وقرى «حجتهم» بالنصب والرفع، على تقديم خبر كان وتأخيرها. فإن قلت: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدل المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله [من الوافر]:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(١)

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد: نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً لقولهم: ﴿اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت. ألزموا ما هم مقرّون به: من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق، وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ يُحْضِرُ الْمُبْتُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَأَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كَأَنَّ أُمَّةً دُعِيَ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَحْمَتِيءُ

١٤١٢ - أخرجه البخاري في صحيحه (٥٤٥/٩): كتاب التفسير: باب وما يهلكنا إلا الدهر، حديث (٤٨٢٦) وفي (٤٣٢/١٥) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، حديث (٧٤٩١)، ومسلم (٥/٨): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث برقم (٢٢٤٦). وأحمد في مسنده (٢٣٨/٢)، وأبو داود (٣٦٩/٤): كتاب الأدب: باب في الرجل سب الدهر (٥٢٧٤) الحميدي في مسنده (٤٦٨/٢) حديث (١٠٩٦). كلهم من طريق ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم (٥/٨): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦) (٥) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٤٥٢/٢٠) حديث برقم (٦٠٦٦). والخطيب في تاريخ بغداد (٣٣٤/٧). من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة. قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم. انتهى.

(١) تقدم.

ذَلِكَ هُوَ الْقَوْمُ الْمَعِينُ ﴿٣٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَا بَيْنِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا

مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

عامل النصب في ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ﴾ يخسر، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من (يوم تقوم) ﴿جَائِيَةً﴾ باركة مستوفزة على الركب. وقرئ: «جاذية». والجذو: أشد استيفازًا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جائية مجتمعة. وعن قتادة جماعات من الجثوة، وهي الجماعة، وجمعها: جثى. وفي الحديث: «من جثى جهنم»^(١) (١٤١٣) وقرئ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ على الابتداء، وكل أمة: على الإبدال من كل أمة ﴿إِلَّا كِتَابَهَا﴾ إلى صحائف أعمالها، فاكتمى باسم الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿الْيَوْمَ نُحْزِنُونَ﴾ محمول على القول. فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة، وقد لا بسهم ولا بسه، أما ملابسته إياهم، فلأن أعمالهم مثبتة فيه. وأما ملابسته إياه؛ فإنه مالكة، والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿يَطْلُقُ عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿يَالْحَقُّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم ﴿فِي رَحْمَتِي﴾ في جنته. وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا

١٤١٣ - أخرجه الترمذي في سننه (١٤٨/٥) كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. حديث (٢٨٦٣) والنسائي في الكبرى (٢٧٢/٥)، كتاب الوعيد لمن دعا بدعوى الجاهلية: حديث (٨٨٦٦).

وأحمد في المسند (١٣٠/٤). والطبراني في معجمه الكبير (٣٢٦/٣) حديث (٣٤٣٠)، وأبو داود الطيالسي (٥٣/٢): كتاب خصال الخير من البر والحكم والمواظب والأمثال: باب ما جاء في خمس خصال مجتمعة (٢١٤٨) وابن خزيمة (٦٤/٢): كتاب الصلاة، باب النهي عن الالتفات في الصلاة، حديث (٩٣). وأبو يعلى الموصلي في مسنده (١٤٠/٣) حديث (١٥٧١) وابن حبان في صحيحه (١٢٤/١٤): كتاب التاريخ باب بدء الخلق حديث (٦٢٣٣). والحاكم في المستدرک (١/١١٨) كتاب العلم.

قال الحافظ ابن حجر في هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم... الحديث» أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وأبو يعلى، (تنبیه) احتج به المصنف على أن جثى جمع جثوة: وهي الجماعة. وفي البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيام جثا، كل أمة تتبع نبيها». انتهى.

(١) قوله: «من جثى جهنم» في الصحاح «الجثوة» مثلثة: الحجارة المجموعة. وجثى الحرم، بالضم وبالكسر: ما اجتمع فيه من حجارة الجمار. (ع)

فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَابِيئِي تُكَلِّمُ عَلِيَّكُمْ﴾ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه .

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمْ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وقرى: «الساعة» بالنصب عطفًا على الوعد، وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة؟ فإن قلت: ما معنى ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ قلت: أصله نظن ظنًا. ومعناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء، ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن تأكيدًا بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِينَ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي قبائح أعمالهم. أو عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿وَيَلِ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُم بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿نَنسِكُمْ﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عدة ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروره ببال، كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا. فإن قلت: فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه / ١٧٧/٢. وقرئ «لا يخرجون» بفتح الياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبروا ربهم أي يرضوه.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين، فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب. وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب» (١٤١٤).

١٤١٤ - تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. انتهى.